Chloé Rosner,
Creuser la terre-patrie.
Une histoire de l'archéologie en Palestine-Israël

Paris, CNRS Éditions
2023, 331 p., 31 fig.
ISBN : 9782271140449

Mots clés : Archéologie, histoire, Palestine, Israël, récit national

الكلمات المفتاحية: علم الآثار، التاريخ، فلسطين، إسرائيل، السردية الوطنية

إليكم كتابا مفيدا، يجمع معلومات يصعب الوصول إليها على قارئات وقراء اللغة الفرنسية غير المتمرسين وغير المطلعين على الموضوع. والكتاب ينبثق عن أطروحة دكتوراه في التاريخ ناقشتها كلوي روزنر (Chloé Rosner) في معهد العلوم السياسية بباريس، في ٢٠ يناير ٢٠٢٠. إذن بعد ما لا يزيد عن نحو ثلاث سنوات، تمكنت روزنر من نشر أطروحتها، التي أعدتها تحت إشراف مشترك لكلير أندريو (Claire Andrieu)، المتخصصة في التاريخ السياسي والاجتماعي للقرن العشرين، وڤينسان لومير (Vincent Lemire)، المؤرخ المتخصص في تاريخ القدس. لم أقم بعقد مقارنة بين الأطروحة والكتاب، ولا يمكنني بالتالي أن أقول إلى أي مدى كان الأخير نتاج عملية تعديل أو إعادة كتابة – وكلوي روزنر لا توضح هذه النقطة كثيرا. لكني على الأقل تمكنت من إدراك أن الكتابة، رغم كونها بلا ريب متكلّفة وذات أسلوب مدرسي في بعض الأحيان، بل وحتى رغم افتقارها إلى المهارة أحيانا، لا تؤثر سلبا على عملية القراءة وعلى فهم الموضوعات، أو على الأقل ليس أكثر من غياب الخرائط الذي، في الواقع، يبدو صارخا إلى درجة تدفعنا إلى التساؤل عما إذا لم يكن خيارا مقصودا. كذلك، لنا أن نندهش من عيوب الإعداد التي نجدها في الكتاب، الذي لا يحتوي على ثبت للأشكال (رغم احتوائه على ٣١ منها)، كما أن العديد منها يُقرأ بصعوبة وبعضها غير قابل للقراءة على الإطلاق. وعلي أن أقول إن نسخة الكتاب التي اشتريتها غير مرضية في المجمل، حتى أنه يبدو وكما لو كان الحبر قد نفذ أثناء الطباعة (ص ١٩٥، ص ٢١٩، إلخ).

يستند هذا الكتاب إلى فكرة فحواها أن علم الآثار يحمل في طياته قضايا أيديولوجية وسياسية وينقلها، فالأفراد والمجموعات الاجتماعية والمنظمات (الجماعية والعلمية والدينية ...) والأمم التي تفتقر إلى هوية و/ أو، بالنسبة لهذه الأخيرة، تلك التي تبتغي صياغة «رواية قومية» لنفسها تنهل طواعية من منبع علم الآثار. وهذه الفكرة، الشائعة في المجتمع الأكاديمي، ستنتشر لدى الجمهور العريض الناطق بالفرنسية، لاسيما بعد ما كان لكتاب حفر الأرض–الوطن... من صدى إعلامي في فرنسا. فقد كان محل اهتمام وتنويه من جانب بعض وسائل الإعلام كما تمت استضافة مؤلفته في العديد منها في فرنسا، على سبيل المثال في مجلة لوپوان (*Le Point*)، تحت عنوان «علم الآثار، قضية رئيسية لإسرائيل»، للصحفي فرانسوا غيوم لوران (François-Guillaume Lorrain)، في ١٩ نوفمبر ٢٠٢٣؛ ومجلة لوموند دي روليجيون (*Le Monde des religions*) بعنوان «بتحويل الأرض المقدسة إلى أرض–وطن، أتاح علم الآثار صناعة الأمة الإسرائيلية»، وهو حوار سجله يونس بوسنة مع المؤلفة في ١٧ ديسمبر ٢٠٢٣؛ ومجلة لوجورنال دي زار (*Le Journal des Arts*) بعنوان «كلوي روزنر: «علم الآثار اليهودي نشأ بالتوازي مع الصهيونية»»، وهي مقابلة أجرتها أولمپ لوموت (Olympe Lemut) ونشرت في العدد ٦٢٥ الصادر في ١٩ يناير ٢٠٢٤، ومجلة لوموند دو لابيبل (*Le Monde de La Bible*) بعنوان «علم الآثار اليهودي، بين المقدس والهوية» وهو لقاء أجراه أرنو دي غايل (Arnaud de Gail) في ٩ أبريل ٢٠٢٤؛ وغيرها.

ولربما لن يكف هذا الصدى عن إدهاش الساذجة أو الساذج من الجمهور اللذين قد يجهلان أن حفر الأرض–الوطن... يعالج موضوع أرضٍ، على الأقل على المستوى الرمزي، لها مكانة فريدة في الوجدان الفرنسي والأوروبي؛ أرض يصعب بل ويكاد يستحيل ذكرها من دون أن يثير ذلك، حسب القارئة والقارئ، اهتماما مفرطا، أو تعاطفا زائدا، أو مباركة صادقة مسبقا، أو شعورا قويا بالتعاطف والمودّة، أو، على العكس، لعنات دائمة وإهانات متواصلة وعداوة عنيفة وقاسية؛ أرض يستحيل فعليا ذكرها بدون التفكير في المعالم الأثرية التي تضيئها، معالم تُستغل وتُوظّف منذ زمن طويل، حسب كلوي روزنر، من قِبل شخصيات ومؤسسات محورية في «الاستعمار الصهيوني» (ص ٧٦) ثم من قِبل «علم آثار إسرائيلي [...] يحفظ بعدًا استعماريًا، فرغم أن جزءا من الوطن الفلسطيني قد أضحى إسرائيليا، تبقى السيطرة على الأرض مهمة يجب إنجازها» (ص ٢٨٥). أرض، كذلك، من العبث ومن المنافي للأخلاق ألا نرى أنها قد غدت غير قادرة على التخلص من لون الدم الذي تريقه آلات الموت والدمار التي تتكدس فيها وتتراكم طبقة فوق الأخرى منذ عقود طويلة.

صدر الكتاب في ١٩ أكتوبر ٢٠٢٣، في الوقت الذي كانت الحرب فيه تنشر مجددا مخالبها المروعة. ولا يأتي ذكر لتشبع هذه الأرض بالفظائع والأهوال ولا لأكوام جثث الضحايا الذين دفنوا أنفسهم في سحيق عمقها في كتاب لا يوضح عنوانه –عكس الأطروحة[1] – أنه يدور حول أفراد ومؤسسات كان لهم دور في نشر «علم آثار يهودي» (وعلينا أن نتوخى الحذر لعدم فهمه كعلم موضوعه «دراسة الآثار اليهودية رغم أن هذا التعريف وهذا البعد الدراسي يميلان إلى التراكب والتداخل فيما بينهما»، ص ١٦) ثم لاحقا «إسرائيلي». كذلك، لا يوضح العنوان بدقة الحدود الزمنية للكتاب، فروزنر تعالج فترة تمتد من «نشوء الصهيونية وتطورها إبّان العصر العثماني المتأخر» حتى سنة ١٩٦٧؛ و«تختم حرب الأيام الستة الدراسة لأنها غيّرت بصورة دائمة حدود الدولة ووضعها السياسي، وهو ما انعكس على الممارسة العملية والتنظيم لعلم الآثار في إسرائيل والأراضي الفلسطينية» (ص ١٦).

(1) *Creuser la terre-patrie pour fabriquer la nation. Histoire d'une aventure scientifique : de l'archéologie juive à l'archéologie israélienne (XIXe siècle-1967).*
حفر الأرض–الوطن من أجل صناعة أمة: قصة مغامرة علمية: من علم الآثار اليهودي إلى علم الآثار الإسرائيلي (القرن التاسع عشر –١٩٦٧).

BCAI 39 (2025) Chloé Rosner: Creuser la terre-patrie. Une histoire de l'archéologie en Palestine-Israël, recensé par Abbes Zouache
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net

أكانت روزنر تطمح، باستخدامها لتعبير «الأرض–الوطن»، إلى أن تحيل، على الأقل ضمنيا، إلى كتاب إدغار موران (Edgard Morin) وآن بريجيت كيرن (Anne-Brigitte Kern) الأرض–الوطن (باريس، لوسوي، ١٩٩٣)؟ لست واثقا من ذلك، ولكن لا يمكنني الجزم بشيء في هذا الشأن، فلا نجد في الكتاب أي إشارة – إلّا إذا فاتني الانتباه إليها – إلى ما يمثل من أهمية، للبشرية جمعاء، وطن «أعمق وأقدم وأشمل» من الوطن الذي ينقاد فيه كل فرد للوهلة الأولى إلى اعتباره وطنا له، ولا حتى إلى مفهوم الإنسان العاقل المجنون (*Homo sapiens demens*) الذي يفرض على الأرض التي يحتلها بخطى قسرية حثيثة أنسنة عقيمة وسخيفة ومدمرة. وفي المقابل، من الصعب عدم الربط بين كتاب كلوي روزنر وميرون بنڤنستي (Meron Benvenisti؛ ت ٢٠٢٠)، الصحفي والمؤرخ والسياسي وعالم السياسة الإسرائيلي الذي تولى، بين سنتي ١٩٧١ و١٩٧٨، منصب نائب رئيس بلدية القدس (المنتمي لحزب العمال)، والمولود في القدس سنة ١٩٣٤. وهذا الرابط تبرزه وتسلط عليه الضوء روزنر نفسها في البورتريه أو التقديم الذي كرسته له، في ١٥ فبراير ٢٠٢١، مجموعة البحث حول الأنظمة الاستعمارية (GROC). كذلك، حين سُئِلت عن ملهميها، أوضحت روزنر أنها قد «استلهمت بصورة خاصة» من الكتاب الصادر سنة ٢٠٠٠ لبنڤنستي بعنوان *Sacred Landscape*: *A Buried History of the Holy Land since* ١٩٤٨، (المشهد المقدس: طمس تاريخ الأرض المقدسة منذ ١٩٤٨) الذي ترجمه من العبرية إلى الإنكليزية مكسين كاوفمان–لاكوستا (Maxine Kaufman–Lacusta) وأصدرته جامعة كاليفورنيا، بيركلي. وتؤكد الكاتبة أن هذا الكتاب «يصف علاقة المجتمع الإسرائيلي المتناقضة مع أرضه وماضيه – عبر تجربته الخاصة».

وقد ألحّ بنڤنستي (بوجه خاص) على أن رسم الخرائط شكّل منذ مرحلة مبكرة أداة سلطة وقوة في أيدي القادة الإسرائيليين. ولم تجد كلوي روزنر أي عناء في إثبات أن هذا حدث بالمثل في علم الآثار حتى قبل تأسيس دولة إسرائيل – وبدون إبداع أو تميز، كما تشير إلى ذلك بشكل عابر عند مقارنتها بين الخطابات الإسرائيلية وخطابات البلدان التي حصلت على استقلالها في النصف الثاني من القرن العشرين، خاصة في الشرق الأوسط (ص ٢٦٢ والحاشية ٣). ولكن، بينما تحوم الذاكرات العربية والفلسطينية فوق كتاب مفكر معروف (محل إعجاب أو، وفقًا للتوجهات، محل تنديد عنيف) بموقفه الذي دافع فيه عن خيار دولة ثنائية القومية، يختلف الأمر في كتاب حفر الأرض–الوطن. أيرجع ذلك إلى المصادر؟ ربما، فكلوي روزنر لا تستعين بمصادر أولية أو ثانوية باللغة العربية. ومن يتحلى ولو بشيء من الفضول وحب الاستطلاع بين القارئات والقراء قد يتساءل حول كيف تمت دراسة وشرح الوقائع التي وصفتها روزنر في مثل هذا التوثيق وكذلك، بصورة أعم، من قِبل المؤرخين والمفكرين العرب والفلسطينيين، ولكنهم لن يجدوا جوابا لتساؤلاتهم في كتاب شدّدت على فائدته ولكنه، كما يحدث بشكل متكرر في التأريخ الفرنسي حين يتعرض لمجتمعات الشرقين الأدنى أو الأوسط، لا يدرس إلا نظرة جانب واحد من الشخصيات الرئيسية لظاهرة تاريخية، حتى حين ينطوي ذلك على خطر تحويل الآخرين إلى ناس لا صوت لهم، منسيات ومنسيين من التاريخ.

عباس زواش،
المركز الوطني للبحث العلمي–
المعهد الفرنسي للآثار الشرقية

BCAI 39 (2025) Chloé Rosner: Creuser la terre-patrie. Une histoire de l'archéologie en Palestine-Israël, recensé par Abbes Zouache
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net